(١)

أمة اقرأ .. أمة أتقن ..
بين علماء الأمة وعلماء الفتنة

الحمد لله رب العالمين ، القائل في كتابه الكريم : {قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ} ، وأَشهدُ أنْ لاَ إلهَ إلاَّ اللهُ وحدَهُ لا شَريكَ لَهُ ، وأَشهدُ أنَّ سيدَنا ونبيَّنا مُحَمّدًا عَبدُه وَرَسُولُهُ ، اللَّهُمَّ صَلِّ وسلِّمْ وبارِكْ عليهِ وعلَى آلِهِ وصحبِهِ أجمعين .

وبعــد :

فلقد رغب الإسلام في طلب العلم ، وحث على الجد والاجتهاد في تحصيله ، ولا أدل على ذلك من أن أول ما نزل من القرآن الكريم هو قول الله سبحانه وتعالى: {اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ * خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ * اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ * الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ * عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ} ؛ فأول أمرٍ سماوي نزل به الوحي هو الأمر بالقراءة التي هي أول أبواب العلم ، ثم أتت بعد ذلك الإشارة إلى القلم الذي هو وسيلة تدوين العلم ونقله ، وفي هذا تنبيه للناس كافة على بيان فضل العلم ، والترغيب في طلبه ، والحث عليه ، وإشارة صريحة إلى أن الإسلام دين العلم والمعرفة ، وأن هذه الأمة هي أمة العلم وصناعة الحضارة .

كما سُميت سورة كاملة في القرآن الكريم باسم "القلم" ، واستهلها سبحانه وتعالى بقوله (جل شأنه) : {ن * وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ} ؛ تأكيدًا على أهمية أدوات العلم ووسائله ، ويكفي بالعلم شرفًا أن الله (عز وجل) لم يأمر نبيه (صلى الله عليه وسلم) بالازدياد من شيء في الدنيا إلا من العلم ، حيث يقول سبحانه : {وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا} ، بل إن النبي (صلى الله عليه وسلم) جعل الخروج لطلب العلم خروجًا في سبيل الله (عز وجل) ، وبين أن الجد في طلبه سبب من أسباب دخول الجنة ، فقَالَ

(صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) : (مَنْ خَرَجَ فِي طَلَبِ الْعِلْمِ فَهُوَ فِي سَبِيل الله حَتَّى يَرْجِعْ) ، ويقول (صلى الله عليه وسلم) : " مَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَلْتَمِسُ فِيهِ عِلْمًا سَهَّلَ اللَّهُ لَهُ طَرِيقًا إِلَى الْجَنَّةِ " ، فالعلم أحد أعمدة بناء الدول ، به تنهض الأمم وتتقدّم ، وبه ينال الإنسان مكانته ، ويعلو قدره .

ولقد أعلى القرآن الكريم من شأن العلماء – على اختلاف تخصصاتهم – فقال تعالى : {يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ} ، كما شهد الله تعالى للعلماء بأنهم أهل خشيته ، فقال سبحانه : {إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ} ، ولعظم قدرهم وعلو منزلتهم شرَّفهم الله (عز وجل) بالشهادة على أعظم مشهود ، فقال تعالى : {شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ} .

وقد أكد النبي (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) على ذلك ، فبين أن أهل العلم هم ورثة الأنبياء في إرشاد الناس ، وهدايتهم ، والأخذ بناصيتهم إلى طريق الحق والنور ، والإصلاح والبناء ، فقال (صلى الله عليه وسلم) : (إنَّ العلماءَ ورثةُ الأنبياء ، وَإنَّ الأنْبِيَاءَ لَمْ يُوَرِّثُوا دِينَارًا وَلاَ دِرْهَمًا وَإِنَّمَا وَرَّثُوا العِلْمَ ، فَمَنْ أَخَذَهُ أَخَذَ بحَظٍّ وَافِرٍ) ، ويقول (صلى الله عليه وسلم): (وَإِنَّ فَضْلَ الْعَالِمِ عَلَى الْعَابِدِ كَفَضْلِ الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ عَلَى سَائِرِ الْكَوَاكِبِ) .

ولا شك أن أهل العلم الذين كرمهم الله (عز وجل) وأعلى من شأنهم ، والذين أثنى عليهم رسول الله (صلى الله عليه وسلم) هم علماء الأمة المخلصون الذين أدركوا عظم الأمانة التي يحملونها ؛ أمانة العلم ، وأمانة الدعوة ، وأمانة البيان ، يقول نبينا (صلى الله عليه وسلم) : (نَضَّرَ اللَّهُ امْرَأً سَمِعَ مَقَالَتِيَ فَحَفِظَهَا فَأَدَّاهَا كَمَا سَمِعَهَا ...) ، علماء الأمة المخلصون هم من فطنوا لطبيعة المهمة التي اصطفاهم الله

عز وجل من أجلها ، وأنها ليست مهمة تكسب بالعلم ، أو بالدين ، فالرسالة التي يقومون بأدائها أرقى ، وأسمى ، وأعظم من ذلك ، يقول الحق سبحانه على لسان سيدنا محمد (صلى الله عليه وسلم): {قُلْ مَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ} ، ويقول سبحانه على لسانه (صلى الله عليه وسلم) : {قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَنْ شَاءَ أَنْ يَتَّخِذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلًا} ، ويقول سبحانه على لسان أنبيائه : نوح وهود وصالح ولوط وشعيب (عليهم السلام) : {وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ} ، بصيغة واحدة تؤكد وحدة الهدف ، والمنهج ، وصدق النية مع الله (عز وجل) ، وتمام الإخلاص له وحده.

إن علماء الأمة الحقيقيين هم من بذلوا وقتهم ، وجهدهم ، وقدموا علمهم خدمة لدينهم ، ووطنهم ، فسلكوا بالناس مسلك الوسطية والاعتدال ، والتسامح والرحمة ، فأثمرت دعوتهم أجيالا نافعة ، تبني ولا تهدم ، تعمر ولا تخرب ، تُعلي من القيم الإنسانية ، وترفع من كرامة الإنسان ، وتتعايش مع الناس جميعا في سلم وسلام ، وأمن وأمان ، وهذا هو العلم النافع الذي يكون ذخرا لصاحبه بعد وفاته ، حيث يقول نبينا (صلى الله عليه وسلم) : (إِذَا مَاتَ الإِنْسَانُ انْقَطَعَ عَنْهُ عَمَلُهُ إِلاَّ مِنْ ثَلاَثَةٍ ، إِلاَّ مِنْ صَدَقَةٍ جَارِيَةٍ ، أَوْ عِلْمٍ يُنْتَفَعُ بِهِ ، أَوْ وَلَدٍ صَالِحٍ يَدْعُو لَهُ) ، وكان (صلى الله عليه وسلم) يستعيذ بالله من العلم الذي لا ينفع ولا يبني ولا يعمر ولا يهذب الأخلاق والسلوك، فكان (صلى الله عليه وسلم) يقول : (سَلُوا اللَّهَ عِلْمًا نَافِعًا ، وَتَعَوَّذُوا بِاللَّهِ مِنْ عِلْمٍ لَا يَنْفَعُ)، وكان من دعائه (صلى الله عليه وسلم) : (اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ عِلْمٍ لاَ يَنْفَعُ ، وَمِنْ قَلْبٍ لاَ يَخْشَعُ ، وَمِنْ نَفْسٍ لاَ تَشْبَعُ ، وَمِنْ دَعْوَةٍ لاَ يُسْتَجَابُ لَهَا) .

إن علماء الأمة الحقيقيين هم من فقهوا رسالة العلم ، وعرفوا ثقل أمانته ، فأدركوا خطورة الفتوى ، وكانوا يتحرجون منها ، لعلمهم بعظم أمرها ، وهذا ما كان عليه

أهل العلم من الصحابة والتابعين ، فها هو سيدنا أبو بكر الصديق (رضي الله عنه) ، يقول : " أَيُّ سَمَاءٍ تُظِلُّنِي ؟ وَأَيُّ أَرْضٍ تُقِلُّنِي؟ إِذَا قُلْتُ فِي كِتَابِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ" ، وقد سُئل الإمام مالك (رحمه الله) يومًا في أربعين مسألة ، فأجاب عن أربع منها ، وقال في ست وثلاثين منها : "لا أدري"، دون خجل ، أو تردد ؛ لأنَّ لا أدري هي وقاية العالم وجُنته التي لو أغفلها هلك .

وسئل الإمام الشافعي (رحمه الله) يومًا عن مسألةٍ ، فسكَت ، فقيل له : ألا تُجيب السائل يا إمام ؟ فقال : حتى أدري الفضل في سكوتي ، أم في الجواب ؟ وكان الإمام أحمدُ بن حنبل (رحمه الله) يُستفتى ، فيُكثر مِن قول : لا أدري ، وسئل الشعبي (رضي الله عنه) عن مسألة ، فقال : لا أحسنها ، فقال له أصحابه : قد استحيينا لك ، فقال : لكن الملائكة لم تستح حين قالت : {لَا عِلْم لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا} ، وقال عبد الرحمن بن أبي ليلى : أدركت عشرين ومائة من الأنصار ، من أصحاب رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ، يُسألُ أحدهم عن المسألة ، فيردها إلى هذا ، وهذا إلى هذا، حتى ترجع إلى الأول ، وقد سُئِلَ عَطَاء بن يسار عَنْ شَيْءٍ ، فقالَ : " لَا أَدْرِي"، قِيلَ لَهُ : أَلَا تَقُولُ فِيهَا بِرَأْيِكَ؟ قَالَ : "إِنِّي أَسْتَحْيِي مِنَ اللَّهِ (عَزَّ وَجَلَّ) أَنْ يُدَانَ فِي الْأَرْضِ بِرَأْيِي" .

أقولُ قولِي هذا ، وأستغفرُ اللهَ لِي ولكُمْ .

الحمدُ للهِ ربِّ العالمينَ ، وأشهدُ أن لا إلهَ إلاَّ اللهُ وحدَهُ لاَ شريكَ لَهُ ، وأشهدُ أنَّ سيدَنَا وَنَبِيَّنَا مُحَمَّدًا عبدُه ورسُولُه ، اللهُمَّ صَلّ وسلمْ وَبارك عليهِ ، وَعلى آلهِ وصحبهِ أجمعينَ ، وَمن تَبعَهُمْ بإحسانٍ إِلىَ يومِ الدِّين .

إخوة الإسلام :

إن علماء الأمة المخلصين هم أصحاب الهدْي الصالح، والسَّمت الصالح، والاقتصاد والاعتدال ، الذين يحملون راية الوسطية في كل زمان ينفون عن دين الله تحريف الغالين وتأويل الجاهلين وانتحال المبطلين.

أما علماء الفتنة الذين اتخذوا دين الله مطيَّة لتحقيق أهدافهم ، وبلوغ أغراضهم، فأولئك الذين تجرءوا على دين الله (عز وجل) ، وأطلقوا قذائف الفتاوى التي تضر ولا تنفع ، وتفرق ولا تجمع ، وتهدم ولا تبني ، وتفتح على الأمة باب التكفير ، الذي حذر الإسلام من الولوج فيه ، يقول (صلى الله عليه وسلم) : (أَيُّمَا امْرِئٍ قَالَ لأَخِيهِ يَا كَافِرُ فَقَدْ بَاءَ بِهَا أَحَدُهُمَا ، إِنْ كَانَ كَمَا قَالَ، وَإِلاَّ رَجَعَتْ عَلَيْهِ).

لقد اتخذ علماء الفتنة من التشدد والعنت والتضييق على الناس منهجًا لهم؛ وهو منهج بعيد كل البعد عن سماحة الإسلام ووسطيته ، فقد رفع الإسلام عن الناس كل حرج ، وأزال عنهم كل مشقة ، حيث يقول الحق سبحانه : {وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ} ، ويقول نبينا (صلى الله عليه وسلم): (بَشِّرُوا ، وَلَا تُنَفِّرُوا ، وَيَسِّرُوا ، وَلَا تُعَسِّرُوا)، فالتشدد في الفتاوى يخالف الوسطية السمحة التي تميز بها الدين الإسلامي الحنيف ، قال تعالى : {وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ}، والوسطية تعني : العدل ، والاعتدال ، والبعد عن الغلو الذي هو سبب في هلاك الأمم ، يقول نبينا (صلى الله عليه وسلم) : (يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِيَّاكُمْ وَالْغُلُوَّ فِي الدِّينِ، فَإِنَّمَا أَهْلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمُ الْغُلُوُّ فِي الدِّينِ) ، وقَالَ سُفْيَانُ الثَّوْرِيُّ (رحمه الله): " إِنَّمَا الْعِلْمُ عِنْدَنَا الرُّخْصَةُ فِي فِقْهٍ ، فَأَمَّا التَّشَدُّدُ فُكُلُّ أَحَدٍ يُحْسِنُهُ " .

ويلحق بعلماء الفتنة ، علماء التغييب الذين يتحدثون بغير علم ، ولم يفطنوا إلى حاجة الأمة في الأخذ بأقصى الأسباب ، ولم يدركوا أن عمارة الدنيا من أهم مقاصد الأديان ، وأن الناس لن تحترم ديننا ما لم نتفوق في أمر دنيانا ، فإن تفوقنا في أمر

دنيانا احترم الناس ديننا ودنيانا ، فسخر من لا يدركون ذلك مواعظهم للتحذير المطلق من الدنيا بما أوقع كثيرًا من العامة في الفهم الخاطئ لعلاقة الدنيا بالدين وضرورة الأخذ بالأسباب ، وفهموا الزهد فهما خاطئا بأنه الانعزال عن الحياة، وغفلوا عن قوله تعالى : {رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ}.

على أننا نؤكد أن الجرأة على الفتوى من غير المؤهلين لها علميًّا ضلال وإضلال، فما أكثر ما تسببت الفتوى بغير علم في الإضرار بحياة الأشخاص، فعن جابر بن عبد الله (رضي الله عنهما) ، قال : خرجنا في سفر فأصاب رجلًا منا حجر فشجّه في رأسه، ثم احتلم ، فسأل أصحابه : هل تجدون لي رخصة في التيمم؟ فقالوا : ما نجد لك رخصة وأنت تقدر على الماء ، فاغتسل فمات ، فلما قدمنا على النبي (صلى الله عليه وسلم) أُخبر بذلك ، فقال (صلى الله عليه وسلم) : (قَتَلُوهُ ، قَتَلَهُمُ اللَّهُ ، أَلَا سَأَلُوا إِذْ لَمْ يَعْلَمُوا ؛ فَإِنَّمَا شِفَاءُ الْعِيِّ السُّؤَالُ ، إِنَّمَا كَانَ يَكْفِيهِ أَنْ يَتَيَمَّمَ وَيَعْصِرَ ، أَوْ يَعْصِبَ عَلَى جُرْحِهِ خِرْقَةً ، ثُمَّ يَمْسَحَ عَلَيْهَا ، وَيَغْسِلَ سَائِرَ جَسَدِهِ) .

فما أحوجنا إلى أن يلزم كل منا تخصصه ، وأن يجتهد فيما يحسنه ، خشية لله تعالى، واحترامًا للعلم ، وتقديرًا لخطورة الكلمة ، فكم من كلمةٍ أطلقها صاحبها – بغير علم – كانت سببا في خراب ، ودمار ، وفساد ، فالسكوت خير من كلام يضر ولا ينفع ، ولو سكت من لا يعلم لسقط الخلاف ، يقول نبينا (صلى الله عليه وسلم) : (... وَمَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَاليَوْمِ الآخِرِ فَلْيَقُلْ خَيْرًا أَوْ لِيَصْمُتْ) .

اللهمّ أرنا الحق حقا وارزقنا اتباعه ، وأرنا الباطل باطلا وارزقنا اجتنابه ، وعلمنا ما ينفعنا ، وانفعنا بما علمتنا ، وزدنا علمًا ، واحفظ مصرنا وسائر بلاد العالمين .